عبقرية محمد السياسية

سياسة الخصوم والأتباع:

السياسة على معان كثيرة فى العرف الحديث..

فمنها ما يكون بين بعض الدول وبعض من المراسم والعلاقات، ومنها ما يكون بين هذه الدول من معاهدات وخطط فى أعمالها الخارجية، ومنها ما يكون بين الراعى ورعيته أو بين الأحزاب والوزارات من برامج ودعوات.. ولكل معنى من هذه المعانى اصطلاحه فى العرف الحديث، وإن جمعتها كلمة السياسة فى اللغة العربية.

وقد تولى النبى ﷺ أعمالا كثيرة مما يطلق عليه لفظ السياسة فى عموم مدلولة.. ولكننا لا نعرف بينها عملا واحدا هو أدخل فى أبواب السياسة، وأجمع لضروبها، وأبعد عن المشاركة فى صفة القيادة العسكرية أو صفة الوعظ العلنى أو سار الصفات التى اتصف بها ﷺ من عهد الحديبية فى مراحله جميعا، منذ ابتدأ بالدعوة إلى الحج إلى أن انتهى بنقض الميثاق على أيدى قريش.

ففى عهد الحديبية تدبير محمد فى سياسة خصومه وسياسة أتباعه، وفى الاعتماد على السلم والعهد حيث يحسنان ويصلحان، والاعتماد على الحرب والقوة حيث لا تحسن المسالمة ولا تصلح العهود.

بدأ بالدعوة إلى الحج، فلم يقصره فى تلك السنة على المسلمين المصدقين لرسالته.. بل شمل به كل ما أراد الحج من أبناء القبائل العربية التى تشارك المسلمين فى تعظيم البيت والسعى إليه، فجعل له وللعرب أجمعين قضية واحدة فى وجه قريش، ومصلحة واحدة فى وجه مصلحتها وفضل بذلك بين دعواها ودعوى القبائل الأخرى، ثم أفسد على قريش ما تعمدوه من إثارة نخوة العرب وتوجيهها إلى مناوأة محمد والرسالة الإسلامية. فليس

محمد وأصحابه أناسا معزولين عن النخوة العربية يضعون من شأنها ويبطلون مفاخرها. ولكنهم إذن عرب ينتصر بهم العرب ولا يذلون بانتصارهم. أو يقطعون ما بينهم وبين آبائهم وأجدادهم. فإذا خالفوا قريشا فى شىء فذلك شأن قريش وحدهم أو شأن المنتفعين من قريش بالسيطرة على مكة، وليس هو بشأن القبائل أجمعين.

ثم أفسد على قريش من جهة أخرى ما تعلموه من إغضاب العرب على الإسلام بما ادعوا من قطعه للأرزاق وتهديده للأسواق التى يعمرها الحاج ويستفيد منها الغادون إلى مكة والرائحون منها، فها هو ذا محمد نفسه يأخذ معه المسلمين إلى مكة كما يأخذ معه من شاء مصاحبته من غير المسلمين قصاد البيت الحرام فإذا حال بينهم حائل وبين ما يقصدون إليه، فتلك جنايته وذلك وزره على نفسه وعلى قومه، ولا وزر فيما أصاب الأرزاق أو أصاب الأسواق على المسلمين.

وقد سمعنا كثيرًا فى العصور الحديثة عن المقاومة السلبية أو المقاومة التى تجتنب العنف ولا تعتمد على غير وجه الحق والحجة.

سمعنا بها فى الحركة الهندية التى قام على رأسها غاندى وتابعه فيها بعض مريديه، حتى كان لها من الأثر فى إزعاج الحكومة البريطانية ما لم يكن للقنابل ولا للمشاغبات الدامية.

وقيل يومئذ أن غاندى قد تتلمذ فى هذه الحركة على المصلح الروسى الكبير ليون تولستوى وقيل بل هو أن يعرفها من آداب البرهميين والبوذيين التى تحرم إيذاء فضلا عن الإنسان، قبل أن يشرع ليون تولستوى مذهبه الجديد.

والذين قاموا بهذا الرأى الأخير استبعدوا أن يتفق المسلمون والبرهميون والبوذيون على حركة غاندى وتبشيره بتلك المقاومة السلبية لاعتقادهم أن

الإسلام قد شرع القتال فلا يوائم المسلمين ما يوائم البوذيين والبرهميين، من اجتناب القوة والتزام السلم وترك المقاومة.

لكل المثل الذى قدمه النبى ﷺ فى رحلة الحديبية ينقض ما توهموه، ويبين لهم أن الإسلام قد أخذ من كل وسيلة من وسائل نشر الدعوة بنصيب يجرى فى حينه مع مناسباته وأسبابه.. فلا هو يركن إلى السيف وحده ولا إلى السلم وحده، بل يضع كليهما حيث يوضع، ويدفع بكليهما حيث ينبغى أن يدفع وهو الحكم المتصرف حيث يختار ما يختار، وليس الآلة التى يسوقها السلم أو الحرب مساق الاضطرار.

وقد خرج النبى إلى مكة فى رحلة الحديبية حاجا لا غازيا.. يقول ذلك ويكرره ويقيم الشواهد عليه لمن سأله، ويثبت نية السلم بالتجرد من السلاح، إلا ما يؤذون به لغير المقاتلين.

فلم يفصل بهذه الخطة بين العرب وقريش وحسب، بل فصل بين قريش ومن معهم من الأحابيش، وجعل الزعماء الرأى يختلفون فيما بينهم على ما يسلكون من مسلك فى دفعه أو قبوله أو مهادنته، وهو ﷺ يكرر الوصاة لأتباعه بالمسالمة والصبر منعا للأنفاق بين خصومه على قرار واحد، وقل من أتباعه من أدرك قصده ومرماه حتى الصفوة المختارين.

ولما اتفق الطرفان - المسلمون وقريش - على التعاهد والتهادن، وكانت سياسة النبى فى قبول الشروط التى طلبتها قريش غاية فى الحكمة والقدرة "الدبلوماسية" كما تسمى فى اصطلاح المحدثين.

دعا بعلى بن أبى طالب فقال له: اكتب "بسم الله الرحمن الرحيم".

فقال سهيل بن عمرو مندوب قريش: "أمسك! لا أعرف الرحمن الحريم بل اكتب باسمك اللهم".

فقال النبى: "اكتب باسمك اللهم".

ثم قال: "اكـتـب (هذا ما صـالح عليه مـحمـد رسول الله سهـيل بن عمرو)".

فقال سـهيل: "أمسك! لو شهدت أنك رسـول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك".

وروى أن عليا تردد فسمح النبى ما كتب بيده، وأمره أن يكتب "محمد ابن عبد الله فى موضع محمد رسول الله".

ثم تعـاهدوا على أن من أتى مـحمـدا من قـريش بغـير إذن وليـه رده عليهم، ومن جاء قريشا من رجـال محمد لم يردوه عليه، وأنه من أحب من العرب محـالفة محمد فـلا جناح عليه، ومن أحب محالفـة قريش فلا جناح عليه، وأن يرجع محـمد وأصحابه عن مكة عامهم هذا على أن يعـودوا إليها فى العام الذى يليـه، ويقيموا بهـا ثلاثة أيام ومعهم من السلاح السـيوف فى قربها، ولا سلاح غيرها.

ولو كان عهد الحديبية هذا قد كتب بعد قتال انهزم فيه المشركون وانتصر فيه المسلمـون، لوجب أن يكتب على غير هذا الأسلوب. فيعتـرف المشركون كرها أو طوعا بصـفة النبوة ولا يردون أحدًا من مواليـهم أو قاصريهم يذهب إلى النبى ويلحق بالمسلمين.

ولكنه عهد مهادنة أو عهد "إيقاف أعمال العداء إلى حين" كما يسمونه فى اصطلاح العصر الحاضر فلا يعوزه شىء من الأصول المرعية فى أمثال هذه العهـود، من إثبات صـفة المندوبين التى لا إرغـام فيـها لأحد الـطرفين ولا مخـالفة لدعوى الفريـقين، ومن حفظ كل لحقـه فى تجديد دعواه واستئناف مسعاه.

فلو أن النبى ﷺ شرط على قريش أن ترد إليـه من يقصدها من رجاله لنقض بذلك دعـوى الهـداية الإسـلامـيـة، ونقض الـوصف الذى يصف به

المسلمين، فإن المسلم الذى يترك النبى باختياره ليلحق قريشا ليس بمسلم، ولكنه مشرك يشبه قريشا فى دينها وهى أولى به من نبى الإسلام.. أما المسلم الذى يرد إلى المشركين مكرها فإنما الصلة بينه وبين النبى هى الإسلام، وهو شيء لا سلطان عليه للمشركين، ولا تنقطع الصلة فيه بالعبد والقرب. فإن كان الرجل ضعيف الدين ففتنوه عن دينه فلا خير فيه، وإن كان وثيق الدين فبقى على دينه فلا خسارة على المسلمين.

وما انقضت فترة وجيزة حتى علمت قريش أنها هى الخاسرة بذلك الشرط الذى حسبته غنما لها وخذلانا لمحمد ﷺ.. فإن المسلمين الذين نفروا من قريش ولم يقبلهم فى حوزته رعاية لعهده، قد خرجوا إلى طريق القوافل يأخذونها على تجارة قريش وهى أمان فى عهد الهدنة بين الطرفين، فلا استطاع المشركون أن يشكوهم إلى النبى لأنهم خارجون من ولايته بحكم الهدنة، ولا استطاعوا أن يحجزوهم فى مكة كما أرادوا يوم أملوا شروطهم فى عهد الحديبية، ولو قضى العهد بولاية النبى على من ينفر من مسلمى مكة لجاز للمشركين أن ينقضوه أو يطالبوا النبى بالمحافظة عليه.

وتم العهد.. فعرق من لم يعرف ما أفاء على الإسلام بعد قليل فجهر بمحالفة النبى من لم يكن يجهر بولائه.. واستراح النبى من قريش ففرغ ليهود خيبر وللممالك الأجنبية يرسل الرسل إلى عظمائها بالدعوة إلى دينه، وفتح الأبواب لمن يفدون إليه ممن أنكروا بغى قريش وأمنوا أن تكون نصرتهم للإسلام حربا يبتلون فيها بما لا يطيقون.

ويوم ذات الآية الكريمة على أثر اتفاق الحديبية: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢﴾ [الفتح: ١، ٢].

لم يفقه الكثيرون معناها فى حينها، ولم يتبينوا موضع الفتح من ذلك الاتفاق الذى حسبوه محص تسليم، ولكنهم فهموا أى فتح هو بعد سنتين،

وعلموا أن من الفتوح ما يكون بغير السيف، وما يشبه الهزيمة فى ظاهرة عند من يتعجلون ولا يحسنون النظر إلى بعيد..

* * *

الفتح المبين:

كان فى تلك السنة فتح يراه الناظر بعين الغيب ولا يراه الناظر بعينه، ولمنها سنة واحدة ثم رأى الفتح المبين من لا يرون بغير العيون.. رأوه وامتلأت عيونهم بالنظر إليه، فسر قوما وساء آخرين.

ففى السنة التالية نادى الرسول أصحابه أن يتجهزوا للحج ولا يتخلف أحد ممن شهد الحديبية، فخرجوا فى شوق المنطلق بعد منع والمنتظر بعد صبر، إلا من استشهد فى خبير وأدركته الوفاة خلال العام وخرج معهم جمع كبير ممن لم يشهدوا الحديبية يتبعهم النساء والأطفال، وساقوا أمامهم ستين بدنة مقلدات للهدى، وقد حملوا السلاح والدموع والرماح وعلى رأسهم مائة فارس يقودهم محمد بن سلمة.

فلما انتهى الرسول وصحبه إلى ذى الحليفة قدم الخيل أمامه، وعلمت قريش بالنبأ ففزعوا وبعثوا بمكرز بن حفص فى نفر مهم فجاءوا يقولون: "والله يا محمد ما عرفت صغيرا ولا كبيرا بالغدر. تدخل بالسلاح فى الحرم على قومك وقد شرطت عليهم ألا تدخل إلا بسلاح المسافر: السيوف فى القرب" فقال ﷺ: "إنى لا أدخل عليهم" قال مكرز: "هو الذى تعرف به. البر والوفاء".

وإنما حمل النبى السلاح للحيطة كم قال لصحبه: "إن هاجنا هاج من القوم كان السلاح قريبا منها".. وتركه فى الحراسة على مقربة من مكة حيث يوصل إليه عند الحاجة إليه.

ثم أقبل ﷺ على ناقته القصواء وجموع المسلمين محدقون به متوحشون بالسيوف يلبون ويهللون، وأخذ عبد الله بن رواحة بزمام القصواء وهو ينشد:

خلوا بنى الكفار عن سبيله   خلوا فكل الخير فى رسوله

يا رب إنى مؤمن بقليه   إنى رأيت الحق فى قبوله

وأوشك وقد هزته النخوة أن يصيح فى قريش صحية الحرب، فنهاه عمر رضى الله عنه وأمر النبى أن ينادى ولا يزيد: "لا إله إلا الله وحده نصر عبده، وأعز جنده وخذل الأحزاب وحده". فرفع ابن رواحة بها صوته الجهير، وتلاه المسلمون يرددونها وتهتز بها جنبات الوادى القريب، فيسمعها من فارقوا مكة لكيلا يسمعونها ولا يروا ركب النبى يخطو فى نواحيها.

وكان الفتح الذى بصر به عيانا من لم يره يوم الحديبية بنور البصيرة، واسلم من الضعفاء والأقوياء من كان عصيا على الإسلام: فريق منهم بهرهم وفاء النبى بعهده مع استطاعته نقضه، وفريق منهم راعت سمت الدين ورحم الإسلام فيما بين المسلمين، وجمال ما بينهم وبين نبيهم من طاعة وتمكين فريف منهم علموا أن العاقبة للإسلام فجنحوا إلى طريق السلامة والسلام، وحسبك أن عمرة القضاء هذه قد جمعت فى آثارها من أسباب الإقناع بالدعوة المحمدية ما أقنع خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وهما فى رجاحة الخلق والعقل مثلان متكافئان، وإن كان لا يشابهان.

وهكذا تجلت عبقرية محمد فى سياسة الأمور كما تجلت فى قيادة الجيوش. فكان على أحسن نجاح فى سياسته إذ نادى بعزيمة الحج وهو لم يفتح مكة بعدده وعددته، وإذ دعا المسلمين وغير المسلمين إلى مصاحبته فى رحلته، وإذ توخى من طريقه المسالمة وإقامة الحجة فى إنفاذ عزيمته، وإذ قبل العهد الذى كبر قبوله على أقرب المقربين من عترته، وإذا نظر إلى عقباه ووصل به إلى القصد الذى توخاه.